د. محمد شوقي الزين

الحِجَاجُ الفَلْسَفي

الحصة الثالثة

الحجاج الفلسفي والخطابة

مُخطَّط عَام

- المحطَّات الأساسية في الحجاج الفلسفي هي **«الخِطَابَة»** (rhétorique) التي تخصُّ الإقناع الحاسم (persuader) باستعمال الاقتصاد العاطفي واللجوء إلى المشاعر؛ **«المَنْطِق»** (logique) الذي يخصُّ الإقناع اللازم (convaincre) باستعمال الاستدلال العقلي؛ وأخيراً، **«الجَدَل»** (dialectique) الذي يخصُّ المشورة (délibérer). وكل محطَّة من هذه المحطَّات تنعطف على حالة يمكنها أن تكون **«القَوْل»** (Logos) بالاستعمال الوجيه للاستدلالات العقلية، أو **«الطَّبْع»** (Éthos) بالقُدرة على حمل الآخر على الانخراط في الرَّأي بمجرَّد أن نمتلك سليقة قويَّة، أو **«التَأثُّر»** (Pathos) لدى المتلقّي عموماً (متفرِّجاً أم مستمعاً أم قارئاً).

الخِطَابَةُ: قصَّةُ تَشْنيعٍ

- لقد كانت الخطابة محطّ احتراس ونبذ، لأنها كانت «عِلْمُ المُبْهَم» (science du confus) كما يقول ميشال ماير. (MEYER Michel (2011), *La Rhétorique*, PUF, coll. « Que Sais-Je ? », 3e éd., p. 12.).

- تشتغل في «المِيَاهِ العَكِرَة» للالتباس والغموض واستعمال الأشباه والنظائر للخلط بين الذئب والكلب كما جاء في محاورة السُّفَسْطَائي: «ثياتيتوس: مَعَ ذَلِكَ، فَالسُّفَسْطَائي لَهُ شَبَهٌ مُحَدَّدٌ لِوَزِيرِنَا المُطَهَّر؛ الغريب: نَعَم، إِنَّهُ نَفْس الشَّبَه الَّذِي لَدَى الذِّئْب، أَشْرَسُ الحَيَوَانَاتِ، نَحْوَ الكَلْبِ، الَّذِي هُوَ أَلْطَفُهَا. لَكِن مَنْ لَا يَتَعَثَّر، عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ جِدًّا مِنْ هَذِهِ المُقَارَنَة، لأَنَّهَا أَكْثَرُ الأَشْيَاءِ انْزِلَاقاً». (أفلاطون (1994)، «محاورة السفسطائي»، **المحاورات الكاملة**، ترجمة شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، المجلد الثاني، ص228).

- لقد اقترنت الخطابة بالجماعة الفلسفية المسمَّاة السُّفسطائية، حيث أعطى اسم العَلَم اسم «السَّفْسَطَة» (sophistique) التي هي المناورة من أجل التغلُّب على الخصم بأيَّة وسيلة: الإفحام أو الإسكات، الخداع والتضليل، إنكار الوقائع، قلب الحقائق، الانقلاب على الأوضاع، التلاعُب بالألفاظ، إسناد معانٍ في غير محلِّها، إلخ.

أفْلَاطُون في مُوَاجَهَة السُّفَسْطَائِيَّة

- إذا كان التاريخ قد أعطى سنداً معقولاً حول لجوء السُّفسطائية إلى بعض الاستراتيجيات الحِجاجية والخطابية بوصفهم محامي المظلومين لاسترجاع أملاكهم بعد سقوط الطغيان في صقِلِيَّة، إلا أن أفلاطون عيَّر فيهم التَّمادي في هذا السُّلوك وجعله فنًّا قائماً بذاته في التَّحصيل العلمي. لأجل ذلك عارض أفلاطون الجدل (دَيَالِكْتِيكَا) الذي هو الحوار السَّليم بأدوات عقلانية بالخطابة (ريطُورِيقَا) التي تلجأ إلى أسلحة أخرى غير الاحتكام إلى القول أو العقل (لُوغُوسْ)، أي اللجوء إلى الإغراء أو إثارة الإعجاب أو الحميَّة أو العاطفة، وكل ما من شأنه أن يُبرِّر الغاية باستعمال أيَّة وسيلة من وسائل الإقناع، بل الإفحام !من هنا وضع أفلاطون جداراً سميكاً بين المعرفة السُّفسطائية التي تبتغي الإثارة والتمويه، والعلم الفلسفي الخالص الذي يبتغي الحق والعدل.

- هل التَّعيير الأفلاطوني وهجومه الشَّرس على الخطابة كان في محلِّه؟ ألم يكن أفلاطون ينطلق من نموذجٍ أو براديغم هو الفكرة النَّاصعة أو المثال الخالص؟ ولماذا كان لهجومه على الخطابة وقعٌ كبير في تاريخ الفلسفة إلى غاية حرمان هذه الأخيرة من إحدى مركَّباتها الأساسية واختزالها فقط في المنطق والجدل؟

إعَادَةُ تَأْهِيلِ الخِطَابَة

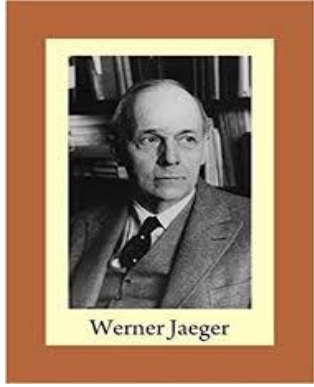

- كان ينبغي انتظار أسماءٍ معاصرة مثل فرنر ياغر صاحب «بَايْدِيَا: تَكْوِينُ الإنْسَانُ الإغْرِيقِيُّ» (WERNER Jaeger (2007), *Paideia. La formation de l'homme grec*, Paris, Gallimard.)، والثنائي بيرلمان-تيتيكا صاحب «الخِطَابَة الجَدِيدَة» (PERELMAN Chaïm et OLBRECHTS-TYTECA Lucie (1958), *Traité de l'argumentation. La nouvelle rhétorique*, Paris, PUF, coll. « Logos »)، ليتمَّ إعادة تأهيل الإرث السُّفسطائي ونفض غُبار الحذَر منه.

- حتى قبل الفترة المعاصرة، كان أرسطو نفسه في «فَنُّ الخِطَابَة» قد أعطى أحقِّية لهذا الخطاب الذي لا مناص منه في الاستعمالات اليومية التي تتميَّز عن الخطاب العلمي البحت، لأن العيش المشترك يتطلَّب خطاباً خاصًّا لا ينتمي إلى فصيلة الخطابات اليقينية، بل الخطابات المحتملة والاعتبارية.

- في الحياة اليومية نُصادف مشكلات ونسعى لحلِّ معضلات ونتواصل مع أشخاصٍ لهم رؤى وآراء تختلف في الدرجة والقيمة، ومن ثَمَّة فإن الخطابة هي المجال الأمثل لحشر كل ما يمكن مصادفته من مشكلات لغوية وتساؤلات حول الخطاب والفعل البشري والمقاصد والنوايا، إلخ.

الخِطَابَةُ شَرٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ

- كما يقول ميشال ماير، «الخِطَابَةُ هِيَ شَرٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ»، التي هي صناعة يومية أكثر منها حقيقة يُراد بلوغها. لأن الحياة اليومية حُبلى بخطابات متعدِّدة ومتقاطعة، منها الخطاب التربوي والخطاب الإعلامي والخطاب السياسي والخطاب الدِّيني والخطاب القضائي والخطاب الأدبي، وهي كلها خطابات تقريبية لا مزاعم فيها للحقيقة النهائية.
- ولأن الحياة اليومية هي أيضاً بوتقة التواصل البشري (communication)، فإنَّ التَّواصل هو كذلك التربة الخصبة للخطابة.
- شبَّهها ميشال ماير بالفَارْمَاكُون (Pharmakon)، أي أن الخطابة تحتمل الخداع والمناورة الذي هو «السُّم» وكذلك الدَّواء والعلاج الذي هو «التُّرْيَاق». أفضل وسيلة لتقويم الخطابة هي الخطابة ذاتها في مراقبة ذاتية، لأنها تنعطف أساساً على الطبيعة البشرية التي تُصحِّح ذاتها بذاتها. إحدى الوسائل التصحيحية هي «الخطابة الحجاجية».

- « RHÉTORIQUE ARGUMENTATIVE », in PLANTIN Christian (2016), *Dictionnaire de l'argumentation*, p. 514-519.

الدَّلَالَاتُ الثَّلَاث للخِطَابَة

- **الدلالة الأفلاطونية:** التي ترى فيها «مُخَادَعَة الجُمْهُور». يمكن حشر في الدلالة الأفلاطونية كل ما له علاقة باستثمار العواطف من أجل التأثير أو التغلُّب على الآخر وتكمن أوجهه المعاصرة في الدِّعاية والإشهار.
- **الدلالة عند كانتيليان:** وهي «فنُّ التَّعْبير الفَصِيح». تنطوي الخطابة على حُسن القول والاستعداد السَّليم للفصيح ومقاصد القول.
- **الدلالة الأرسطية:** وهي «مَجْمُوعَة مِنَ الخِطَابَات وَالحُجَج بِنِيَّة الإقْنَاع». أمَّا الدلالة الأرسطية فهي تؤكِّد على أشكال الخطاب ومسألة الظاهر والباطن والحقيقي والمجازي.
- جاء البُعد الهامشي أو المهمَّش للخطابة في أن هذه الأخيرة لم تكن فنًّا معلوم الحدود والقواعد، بل تعرَّض إلى المدح والقدح، إلى التَّعاطي والاحتراس، ممَّا جعله يتنامى كمعرفة سريَّة تماماً مثل الجماعات السريَّة في تاريخ الهرطقات الدينية.

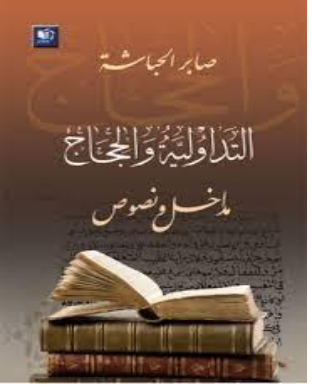

الوَظِيفَةُ الحِجَاجِيَّة للخِطَابَة

- لم يُفلح الطابع المحايد لأرسطو في إرجاع الاعتبار للخطابة التي ظلَّت إذاً في الظِّل والهامش لفترة طويلة من الزَّمن، وارتحلت إلى إقليم الأدب وكأن الوظيفة الجمالية والإنشائية هي الغالب، مع أن الوظيفة الحجاجية يمكن الاضطلاع بها كذلك في الخطابة، على ما يرى المسألة صابر حباشة: «وَلَعَّلَهُ مِنَ الطَّرِيفِ بِمَكَانٍ الإِشَارَةُ إلى أنَّ الأَسَالِيب البَلَاغِيَّة قَدْ يَتِمُّ عَزْلُهَا عَن سِيَاقِهَا البَلَاغِي لِتُؤَدِّيَ وَظِيفَة لَا جَمَالِيَّة إِنْشَائِيَّة (كَمَا هُوَ مَطْلُوبٌ في سِيَاقِ البَلَاغَة) بَلْ هِيَ تُؤَدِّي وَظِيفَة إِقْنَاعِيَّة اسْتِدْلَالِيَّة (كَمَا هُوَ مَطْلُوبٌ في الحِجَاج). وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مُعْظَم الأَسَالِيب البَلَاغِيَّة تَتَوَفَّرُ عَلَى خَاصِيَّة التَحَوُّل لأَدَاءِ أَغْرَاضٍ تَوَاصُلِيَّة وَلإِنْجَازِ مَقَاصِدَ حِجَاجِيَّة وَلإِفَادَةِ أَبْعَادٍ تَدَاوُلِيَّة» (حباشة صابر (2008)، **التداولية والحجاج: مداخل ونصوص**، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، ص50.).
- الحدود غير المعلومة للخطابة لا تجعل منها معرفة بلا موضوع أو بدون هوّية. لأن العناصر المبدئية التي تتشكَّل منها الخطابة هي **«المُخَاطِب»** و**«المتلقّي»** (متفرّج، مستمع، قارئ، سواء أكان فرداً أم جمهوراً) و**«الوَسِيط»** الذي هو اللغة، عُنصر التَّواصل. تستعمل الفنون المعاصرة مثل الشاشة والسينما وسائط أخرى مثل الصوت والصورة في التأثير على الجمهور.